فوضى

بقلم.. طيبي وفاء دليلة /الجزائر

"أدركت في عمر متأخر جدا، أن أعاصير الندم و الجزع – الغير المبكرين - التي عصفت بوجهي و سكنت وديان تجاعيدي، لم تكن إلا ردة فعل لرفرفة جناحي بتلك الطريقة المتمردة **"**

- نظرية الفوضى بمنظور أدبي -

جلست على حافة عمري الذي تجاوز العقد السابع، أتبادل الأحاديث أنا ووحدتي الأبدية، نظرت حولي لعلي أستطيع معرفة ما أنا به، وحدة سرمدية وسط أشخاص غيري، أم أنها كانت أنا من باقي الأزمان تحيطني كما تحيطني غمامة التعاسة الأزلية.

دنت يدي لأحصل على نظاراتي، رفقائي منذ ما يتجاوز العقد الواحد فتبينت لي ملامح الغرفة ذات الألوان المتباينة ما بين الأبيض والكريستالي كما ستتبين لك ملامحي المتباينة بين الحزن والاكتئاب والشرود...!

سأقف أمام المرآة وستسمعني أعذل نفسي بأقسى ما أملك رغم أنني ما عدت أملك سوى حروفي وقدح شاي لكن حري بك إغلاق أذنيك فللحروف ضجة عظيمة أو لعلي سأكتم حروفي فقط.

وهل تكتم الحروف؟

منذ بلغت الأربعين وأنا أراقص مراحل الحزن الخمسة كمراهقة تتعلم أولى خطوات الرقص الشرقي، لكنها معي لا تتجاوز الأربعة، إنكار فغضب فمساومة فاكتئاب، متعثرة لا أدرك هل توقفت الموسيقى أم أنه لم يعد لدي سيقان. وبقيت واقفة عند محطة الاكتئاب الأخيرة وقتا طويلا حتى أنني فقدت العد بعد أن بلغت الخامسة والخمسين!

شال أسود و فستان أسود يطوقانني وما أذكرني ارتديت غير السواد كحداد على روحي التي لاقت حتفها وأنا لم أبلغ الخمسين، رجفة شفاه ورعشة على طول عمودي الفقري المتقوس نتيجة عجزي، صرخة دوت فكان منطلقها أغمق أعماق روحي المتوفاة، ثم انسدلت تجاعيد جفنا عيناي معلنة عن انغلاقهما كاتمة بذلك صرختي المدوية وعذابي الأليم، مسدت يدي على بقايا شعري الذي احتله الشيب كما تحتل اللذعة جسدي، ألقيت نظرة أخيرة على تفاصيل تجاعيد يدي والتي شكلت وديانًا عند التقائها، تلك التفاصيل التي توحي لي أن ما تبقى مني تملص من جسدي ليحضر جنازة روحي الراحلة مسببا انكماشي بهذه الطريقة.

وحدها تلك الطاولة الزجاجية التي تتمركز وسط هذه الغرفة هي ما شد ناظري واستحوذ على تفكيري، فانحنيت نحوها زيادة على انحناء عظامي العاجزة ثم عدت فابتسمت كما لم ابتسم منذ أن بلغت العشرين، لتظهر أسناني الأمامية وهي ما تبقى لي والتي لا أجد لبقائها باعثا وهناك شعرت أن القبر يناديني وأنا لم أنتهي بعد!

عـدت لقبـر روحـي أتلحـف الماضـي وأتوسـد المسـتقبل كـأني أطلـق رصاصة أفكاري نحوه تماما، نمت تلك الليلـة بعد أن أنهيت صـرخاتي وابتساماتي، بعد أن نفذت دموعي وأعدمت روحي، نمت بعد أن أنهيت قدح الشاي البارد. كان يوما شاقا ومتعبا أنهك شظايا روحي العالقة بين عظـامي العـاجزة، ثـم انسـدل السـتار وصـمتت الصـرخة، انطلـق عبـق أفكـاري المتنـاثرة وانتشـر رمـاد عظـامي المتهالكـة وهـذا ثمـن إدراكـي المتأخر جدا، أن أعاصير الندم والجزع -غير المبكرين- التـي عصـفت بوجهي وسكنت وديان تجاعيدي، لـم تكن إلا ردة فعل لرفرفـة جنـاحي بتلك الطريقة المتمردة، وكانت هذه النهاية!

.....

لا زلت واقفة أمام المرآة وأنـا أراقب شظايا روحـي تشتعل، وذكريـات الماضي تراقص ذاكرتي، عن بعد كنت أتخيل تلك الذكريات كفتاة تعاني انفصاما إلا أن الجزء بعضها تعانقني عناقا دافئـا والـبعض الآخـر يحـرم النعاس عن جفوني حين أفكر بها!

اعتدت التجاعيد علـى حرمـة وجهـي فشـوهته جاعلـة إيـاه وإيـاي فرجـة لأشخاص ما جربوا ألمـي يومـا، قبل ثـلاث عقود أو أربـع لـم تكن هذه التجاعيد ملكي ولا أنا هذه العاجزة، كنت فتاة صارخة الأنوثة وكـم كـان صـعبا التخلـي عـن تلـك الملامـح بعد أن عِشت تحت كنفهـا مـا يتجـاوز عقودا ثلاثًا! وكم كنت أقسو على تلك الأنوثة، لا زلت أذكر كيف كنت أهرب من المدرسـة وأنـا بعمـر الخامسـة عشـر لأستنشـق سيجارتي ثـم أعود إلى المنـزل وكـأن شيئا لـم يكن، بعد شـرائي لقطعـة حلـوى بـذوق النعناع، كانت أمي كل مرة تستقبلني بتلـك الملامـح المنهمكـة وذراعهـا اليمنى تتوسط خصرها لتقول " يا آنسة هل كنت تدخنين " وكنـت أعلـم

أن هذا السؤال موجه لتختبر صدقي فكنت أضحك ثم أعانقها مركزة على طبع قبلة على خدها الأيسر قائلة "بل أصادق مدخنا! " وما كان ذاك الصديق إلا أنا، آنذاك كنت شديدة الدناءة، كثيرة الكذب لكنني كنت أجيد الاختفاء تحت رداء لم أكن إياه فكنت أتلحف الالتزام والبراءة والرقي الشديد.

تجربتي الأولى لشرب الكحول كانت قبل بلوغي السابعة عشر ببضع أشهر ولو أنني كنت أدري أن النتيجة ستكون ما أنا عليه لما دخلت ذلك المتجر أبدا! وللأمانة ما كانت نيتي تكمن في شراء الكحول بل ولجت بهدف شراء بعض السجائر التي كنت أنفث من خلالها لوعة روحي.

السجائر التي كانت تُشعرني بهدف وجودي، أنا هنا لأناضل ولكنني أحتاج سببا للنضال، دنوت من الرفوف وحملت علبة سجائر كنت أنوي أن أنتهي منها يومها أو ربما كنت لأتقاسمها مع شخص جرحه الزمان جرحا عميقا، فأجلس أنا وإياه تحت ظل إحدى البنايات ثم يشكي لي الزمان وأشكي له كثرة الدلال وأخيرا انْفض فستاني الراقي وأعدل شعري وأبلع قطعة الحلوى ذات ذوق النعناع وأغادر بأكبر ابتسامة رضا على وجهي، ابتسامة ناعمة رقيقة تصرخ بالدلال كأنني لم أكن أصارع الأدخنة توا ولم يهزمني جرح من كنت أشاركه الجلوس.

لكن يومها خرقت كل طقوسي وخلقت طقوسا جديدة بسببه، فما إن وقفت أمام طاولة المحاسبة بل ما إن وقفت أمامه قال "أنثى مثلك تدخل متجري وتشتري مجرد سجائر! أمر مستحيل " ثم صمت قليلا ولم يقطع نظراته الجريئة نحوي وأردف "جربي شيئا أكبر" كانت بحته عاطفية وأُسلوب حديثه معتدلا، رائحته الرجولية تداعب جيوبي الأنفية لأشعر كأن الأكسجين حينها أصبح ذاك العطر، ولربما كان نوعي المفضل

حينها وما أن أنهى كلماته ضحكت بكل قوتي وركزت على أن تكون ضحكة رنانة فتعلق في عقله أبدا، تضج بالنعومة وكما فتنت ببحته كان عليه أن يفتن بضحكتي، هكذا كانت المعادلة شديدة البساطة كثيرة التفاصيل وهكذا تذوقت أول جرعة من شراب الحب، بعد أن أنهيت ضحكتي هززت رأسي بدلال ونظرت صوب عيناه بتحدٍ قائلة "هل أعتبر الأمر دعاية لهذا المتجر؟!" فلمعت عيناه بطريقة صهرت روحي وأعادت تشكيها كما أراد هو وأجابني ببحته الرجولية واللمعة لا تفارق عيناه "على حسابي!"

وانتهى الحوار بي أخرج من ذلك المتجر إلى جانبه وبيدي كيس يحمل زجاجة شراب رخيص وعلبة سجائر، تلك الأنا كانت مختلفة عن بقية شخصياتي الظاهرة، فتاة بفستان يظهر ثمنه الغال من طريقة تطريزه لا تحمل معها أبدا قارورة شراب كهذه أقل ما قد تحمله نبيذ أحمر عتيق، ولدت وبيدي كل شيء وها أنا ذي سأموت وما بيدي شيء والآن بدأت بالتساؤل ما أنا في ظل وجود كل شيء وماذا أصبحت بعد أن اختفى كل شيء!

احتسيت تلك القارورة بتحد واضح وأنا أحتوي عيناه التي كانت تحدق بي بغرابة، وانكمشت ملامحي حينها من شدة مرارة وحموضة المشروب ولا أظن أن أحشائي أو معدتي استحسنت ذوقه لأجدني أبصقه أرضا سرعان ما لامس أرضية معدتي، فابتسم وعيناه تأبى مفارقتي ثم قال حينها "ملامحك هذه... لذيذة حقا!" فخفق قلبي وارتجفت ملامحي، ارتعشت كبريائي وابتسمت بخجل.

كنت حائرة يومها واقفة بتردد أمام آلاف الأفكار التي لا أجد لها حلا كنت أطلب النضال وحضرتني أسباب النضال مجتمعة معا لينتشلني الحب هامسا ببحة صوته من كل الأفكار فغادرتها وغادرتني ووقفت أمام الحب عارية الأفكار عزلاء من كل سلاح إلا دقات قلبي الحادة وطلقات الغزل الحر من بين شفاهي.

زادت اللقاءات بيننا ورسخ الحب بداخلي فعلمني ما لم يعلمه لي أحد قط! علمني آداب الحديث في حرمة حضور الحب وعلمني أن الوردة المقطوفة صباحا - والتي لم تعني لي شيئا قبل لقائه - هي بمثابة مقابلة للآلهة آفروديت ربة الحب والجمال، فتفرعت بداخلي أغصان الحب مع كل لقاء جمعنا وكل عناق وحدنا، وكان يشير لي بسبابته نحو طائر بلغ الأفق بتحليقه ويقول" كنت أتمنى أن أكون مثله دوما" ثم يصمت وهو يشير نحو طفل يسرق قطعة حلوى من متجره ويردف " والآن أتمنى أن أكون مثله وأسرقك! " لأبتسم قليلا ثم أجيب"اسرقني... إذا! " فيهز رأسه ويجيبني بصوت تعب وبحة مجروحة قائلا "دلالك مشكلة عويصة جدا! وأيضا والداك لن يوافقا على سرقتي إياك"، عقدت حاجباي ورددت "ستوافق آلهة الحب على الأقل" ضحك وقتها بقوة ونبتت أولى زهور الحب داخلي ليقول بعدها "ما زلت تؤمنين بها.... أعني آلهة الحب" لحظتها عدلت جلستي ومسحت على الأرض بكفي الأيسر ثم قمت ونفضت فستاني وقلت بصوت بلغه الجرح الأقسى "بل أؤمن بك"

كان يكبرني بعشر سنين وحين لقائنا لا أذكر هل كنت أنا من تسلق سلم العمر بسرعة لأبلغ السادسة وعشرين وأنا لا أتجاوز السادسة عشر أم أنه كان من تواضع وتراجع عشر سنين كل ما أذكره أننا تساوينا عمرا وحبا.

بعد انتهاء الشهور القلة لأبلغ السابعة بعد العقد الأول كنت قد ناقشت أمي في إمكانية إقامتي لحفلة أدعو فيها كل أصدقائي ووافقت لكنها لو علمت ما كنت أريد فعلا لما وافقت أبدا! لهذا اليوم لا زلت لا أدري هل كانت حفلة لبلوغي السابعة العشر أم أنها كانت جنازة لسنواتي الستة عشر المنقضية لكني متأكدة أنني يومها كنت جاهزة لأقدمني لعريس روحي وليد قلبي.

أمي لم تعلم أبدا أن هذه هي الهدية الوحيدة التي أردتها أما أنا فحرصت تلك الليلة على ارتداء أجمل فستان مع قليل من الحلي البسيطة كنت أزينني وأتمنى أن تزين زينتي وليد قلبي في أعين والداي، آه كم أن الحب مكلف ومتعب حقا!

أذكر تلك الليلة كما يذكر السجين المحرر جدران سجنه وثقل قيوده وعبء عقباته، كنت ليلتها أساعد أمي في وضع اللمسات الأخيرة على الأكل قبل أن أحمل صينية المشروبات وأقدمها للحاضرين وحين وصلت إليه وضعت الصينية جانبا ووقفت على أطراف أصابعي كي أزيد من طولي لأساويه ثم همست في أذنه وأنا أحاول تجاهل دقات قلبي التي تزداد بقربي منه "تلك حماتك، تصرف جيدا" وغادرت، أنثى مثلي لا تستدير أبدا حتى لو كان من أجل أن ترى ما يحصل خلفها لكن في تلك اللحظة تمنيت لو استدرت لأرى ملامحه وما إن صارحت أمي بما أريد، تعالت الصرخات ولم يبقى سواي بملامحي المتوسلة وهو بكبريائه المكسور ووالداي بملامحهما الغريبة والغاضبة، أُخرس لساني ونفدت حروفي وكنت أنظر نحوهما بنظرة مجروحة وزاد ألمي وتفاقم الجرح حين انسحب بعد أن انجرحت بقايا كبريائه ومزقت قطعا صغيرة أمامي ورجل مثله كبريائه هي درعه ورجولته أمام المرأة التي يحب!

وتحولت فجأة من ليلة بلوغي السابعة بعد العقد الأول إلى ليلة أضرمت فها النار بداخلي ورميت بعيدا وبدل الاحتفال بجنازة ستة عشر سنة انقضت، أصبحت جنازة لا احتفال فيها جنازة فتاة كانت ولم تعد!

وبالرغم من أن زهرة حب والداي نشأت وهما بعمر السابعة عشر وولدت أنا وكلاهما لا يتجاوز الثامنة عشر إلا بقليل إلا أنهم كانوا يصرخون يومها أن زواجهم المبكر جرم وخطأ لا يودون مني ارتكابه وحينها تبادر لذهني أنني خطأ لم يتمنوا حضوره ولا يريدون تكملته فينطلق الرصاص والخناجر مستهدفين قلبي فيصرخ وأصرخ معه! ويستنجد وأُنجده واستنجد ولا أجد من ينجدني.

صرخ والدي يومها وقد برزت عروق رقبته واحمرت عيونه "لو خرجتِ لرؤيته مجددا.. لا أنت ابنتي ولا أنا والدك" كان جرح مشاعري يطغى على تهديده فحملت ما استطعت حمله ورميت ذكرياتي وغادرت نحوه.

دخلت محله بعد أن تبللت بالكامل من شعري لأخمص قدماي وتبللت عروقي وقلبي، يومها شعرت أن أمطار مدينتي تقيم العزاء بدلا من والداي ووقفت أمامه بعد أن ذابت زينتي كما ذابت ذكرياتي وكما تذوب ملامحي الآن!

وقلت يومها بعد أن استنزفت كل دموعي"فلنتزوج!" حدق بشكلي وطغت الابتسامة وجهه ثم اقترب مني وقال "بهذا الشكل؟! لا شكرًا "وضحكنا لحظتها كثيرا كما لو كانت حياتنا تعتمد على هذه الضحكة.

يوم زفافي كان نهارا شديد الأمطار ولم يحضر زفافنا سوى الحب والأمل وكانا كلاهما لنا، ولربما لم أحب كون زفافي لم يحضره أحد أو شيء سوى مشاعرنا، أو أنني أحببته ولكنني كنت أخشى الاعتراف، فكيف اعترف وأنا من كنت أحلم بأضخم زفاف عرفته المدينة تزينه الورود من كل الأنواع ويسلمني والدي لعريسي كما يسلمني عريسي قلبه!

لربما اهترأت تلك الساعة الكلاسيكية داخلي، الساعة التي كانت تعد عدا تنازليا حتى موعد قدوم فارس أحلامي لكنني لم أدرك الأمر لأنني كنت متأكدة أن فارسي قد جاء بالفعل!

لم أكن متأكدة لحظتها أن كان الرقص تحت المطر وبدون موسيقى أمرا منطقيا أو واقعيا حتى لكن بداخلي كنت أصرخ أن الأمر صحيح تماما وأن هذا أكثر مما تمنيت ومما أريد، وما إن انتهت رقصتنا التي كنّا نحلق من خلالها اقترب مني وقبل جبيني قبلة دافئة عبر من خلالها عن كل مشاعره ثم لمعت عيناه وابتسم فزادت وسامته وضمني إلى صدره أخيرا فعدت لموطني بين ضلوعه، ما شعرت به في تلك اللحظة كان عبارة عن رجفة قلب سريعة شعرت بها حين أحاطني وما إن ابتعد حتى عادت موسيقى قلبي لطبيعتها وفي ذلك الوقت تماما ارتعشت أطرافي وتراقصت نظراتي عقدت حاجباي ثم أعدت تسريحهما واستغرق مني الأمر أربع دقائق قبل أن أستطيع النظر إلى وجهه مرة ثانية والابتسام.

انقضت السنوات بربيعها وخريفها صيفها وشتائها، أضم الزهور إلى صدري حينا فيزهر قلبي وأتساقط كما تتساقط الأوراق في فصل الخريف ثم تمطر روحي وتزهر ثانية وثالثة.

في سنتنا الرابعة من الزواج وبعد تخرجي مباشرة بدأت ثمرة حبنا بالنمو وكم كان جميلا ذلك الشعور المؤلم اللامؤلم، الحلو المر، أذكر يوما كنّا نستعد فيه للنوم قبل أن أشعر بضربة خفيفة أعلى بطني المنتفخ نسبيا فابتسمت ونظرت نحوه و قلت "ابنك يناديك" لم أشعر بالحب يوما أكثر من تلك الليلة حين جلس ما يقارب الساعة يحادث ابننا ويصفنا له وكان ذاك الشقي يركلني أحيانا فيعتبره ردا على كلامه ثم يعاتبه قائلا " هذه حبيبتي لا أسمح لك بضربها! "يومها نظرت للسقف فجأة ثم قلت " سأسميه آدم " وكان هذا الاسم غريبا على كلينا لكنني قرأت أن آدم الأول كان أول البشر وآدم هذا هو أول حبنا ولهذا أردته اسما لهذه الثمرة اللذيذة لكنه صمت قليلا ثم أجاب "وسأسميها ورد إن كانت فتاة "كان كلاما يؤمن أن الحب تشكل في شكل هذا الإنسان الصغير الذي يقبع بداخل أحشائي!

بقدوم الشهر السابع كان صغيري قد توقف عن تحريضي على الجوع والتقزز من الروائح والدوار والتعب والخمول الشديد ولعلها كانت أمورا خارجة عن إرادته ومتعلقة بطقوس الحمل لا أكثر، كنت أنتظر آدم وكان ينتظر ورد وولد آدم رقيق الملامح شديد البكاء، ضامر الجسد، محمر البشرة وكثير الدلال لكنني أحببته بكل قلبي أو على الأقل أحبه الآن!

لم أرى والدي منذ تخليت عنهم وها أنا ذي انتظر الموت وأنا أدري أني لن أراه وسأموت وأنا لا أدري شيئا عن آدم. والآن بعد أن كثرت

التجاعيد بجسدي أُدرك أنه كان علي عدم استعجال الحب وانتظاره حتى يجيء!

ونمت ليلتها أَضم تجاعيدي وتضمني، وآلاف الأفكار تراودني. الطفل الأول والحب الأول ووالداي كلها أشياء رميتها عرض الحائط مقابل سعادتي والآن جسدي يرميني عرض القبر مقابل حريته!

.....

هجرت مضجعي الذي ما اعتدت هجرانه منذ هجرتني روحي إلا لحاجة لا حاجة لي بعدها، وغادرت تلك الغرفة تاركة قبر روحي خلفي يستنجدني بصرخات مقدسة، وتدلل الصمت في عقلي فاشتد وهو الذي لم يحضرني أبدا، فما عدت أسمع صرخاتي ولا استنجاداتي، وبعد أن خرجت من ذلك الموضع الذي استعمرته كآبتي وحزني نحو الحديقة وهي المنطقة التي لم أغادر حدودها منذ أن سلمت روحي لسجن العجائز، ثم تقدمت وأنا أدرك أن شظايا روحي لا تزال عالقة تنتحب لتعود لروحي القابعة بقبرها وقلت لعاملة أراها هنا للمرة أولى" أما من زيارة لي اليوم؟!" كان سؤالي مجازيا وما أدركت قبل اليوم أن صوتي يهرب من حنجرتي عاجزا فاقدا للأمل فهزت رأسها سلبا، وغادرت نحو الطاولة الوحيدة المنتصبة بطرف هذه الحديقة لكنني وقبل أن أصل إليها تعثرت فتبعثر كبرياء أنوثتي -الذي ما كان يفارقني- والآن تأكدت أن التجاعيد ما غزت جسدي فقط بل غزت شظايا روحي واحتلت ذاكرتي واستعمرت حواسي، و تسللت إلى ذاكرتي كثيرة التجاعيد صورة ابنتي ورد - التي كانت تزاحم أفكاري - والتي قتلتها قبل أن تقابل الحياة.

بدأت مشاعري بالفتور تجاه وحيدي آدم وحبيب قلبي منذ أن دخلت تلك الجامعة، كنت أعمل بها أستاذة في مجال الهندسة المعمارية، وكان آدم قد بلغ الثالثة من العمر فاشتد دلاله حتى فسد وأصبح شديد البكاء، كنت حينها لا أزال في الرابعة و العشرين، ولا أزال ساذجة أحتاج إلى الكثير من الدروس من أمي التي ما إن تخليت عنها ما عدت ألقاها ولا حتى صدفة في الحلم، وبفضل سذاجتي ذقت الحب للمرة الثانية في حياتي ولكن طعمه كان شديد المرارة ممزوجا بذوق الخيانة اللاسع لكنني أحببت ذلك التمرد الذي كنت بحاجة إليه في حياتي فكيف ذلك وأنا هي الفتاة شديدة التمرد التي لا تنام ليلا إلا بعد أن تدرك أنها تمردت على النظام العام لحياتها ولو بارتداء بنطلون في حفلة رسمية!

أنهيت درسي يوم ذاك وأنا أشعر بتعب شديد، فخرجت وأنا أمشي مشية المغصوب على الحركة ليقابلني رجل كل ما كنت أعلمه عنه أنه كان عميدا للكلية التي أعمل بها، الحب يد حريرية الملامس قوية الأعصاب تقبض على القلب وتمس أكثر الأوتار حساسية بِه وهكذا كان ذلك الرجل كان يجعلني أغرق في بحر حبه كأني استنجدته للهرب من محيط حب عريسي، فدخل قلبي واحتله وأصبحت فجأة لا أرى إلا هو!

كنت أتزين بكل طاقتي كل صباح رغبة في أن أحصل عليه، ولم يكن ينساني يوما من غزله الجريء، كان يجيد تعليقي به وكنت ألحقه أنا رامية خلفي كبريائي. وكان وليد قلبي يسألني كل صباح حين أغادر سريره ببرود لأدخل لحضن غيره وأساريري متهللة "ما بال هذا الجمود والفتور الذي يخل بعلاقتنا؟!" فأتجاهله وأغادر السرير أو أغضب وأهجره أياما كنت أقضيها في حضن حبيبي الجديد، لا زلت لا أعلم

كيف لم يشعر بخيانتي وهذا هو الاحتمال الأقل فما يقتلني أن أفكر أنه كان يغفر لي وهو يعلم بخطيئتي!

ازدادت نوبات التعب فجأة فاضطررت لتحديد موعد لي مع طبيب المدينة وسقط علي الخبر كصاعقة، كنت حاملا بطفلي الثاني والذي كان سيكون اسمه ورد سواء أكان فتى أم فتاة وأنا أردته فتاة قبل أن أعلم بحملي حتى! لكنني لم استطع تحمل وقع الخبر فشعرت به يدق بقوة بقلبي وفجأة شعرت أنني نجسة بقدوم هذا الجنين إلى رحمي وتكونت حفرة سوداء بداخلي بدأت تشعرني أن هذا الجنين سيقتلني، لم أرى شخصا أكثر فرحا من وليد قلبي يوم علم بطفله الثاني ولم أجد شخصا أكثر تعاسة مني!

وبعد أن كان يعاملني كأميرة أصبحت أعامل كإمبراطورة لكنني كنت أشعر بدناءة كبيرة جدا فحتى بعد علمي بما أحمله ظللت ألقى ذاك الذي يسكن في زوايا قلبي كل مرة بلهفة حبيب مشتاق وأقتل من يسكن قلبي بأكمله ينظر لي بنفس تلك النظرة المجروحة! آه كم كنت خائنة.

وفي يوم من تلك الأيام المفعمة بأنفاس الشهر السادس العطرة وابتساماته التي تبعث في الجسد راحة من نوع خاص، ولطالما كان هذا الشهر مفضلي من بين كل الشهور فكان هو الشهر الذي أحصد به مشاعري، ذهبت لزيارة هذا الحبيب الجديد في شقة كان قد اشتراها خصيصا للقاءاتنا البعيدة عن عِش الزوجية، وتلاعب بعقلي يومها كالوسواس الخناس، و حين عدت للمنزل يومها كنت قد بلغت من الضيق حدي وبدا لي كلامه صائبا جدا فانتظرت مجيء وليد قلبي في غرفتي بعد أن أودعت آدم إلى منزل جارتنا، وحين دخل طبع قبلة دافئة على جبيني لكنني انتفضت منها كأنها أحرقتني وابتعدت عنه بسرعة

فعقد حاجبيه في استغراب ثم سأل عن آدم وبعد مدة صمت قصيرة كنت قد لحقته وشعرت أن الجاذبية فجأة أصبحت مرتبطة بغرفة النوم فأحسست أنها كانت تجذبني إليها دون رحمة كأنها تمنعني من الحديث لكنني استجمعت كل قوتي ودنوت منه قائلة "أنا أريد الطلاق!" فارتعشت شفتيه وصمت لكنني كنت أعلم أن هناك كلاما معلقا بين حديهما لم يرد قوله، وابتعد دون أن يعطيني ردا على كلامي فأعدت كلامي على مسامعه وبصوت أقوى وأكثر حده" أنا أريد الطلاق!" لكنه استمر بتجاهلي! فعدت إلى غرفتي وجلست هناك طويلا انتحب وحد أعلم أنه لن يحقق لي مطلبي والآن أتمنى لو أنه لم يحقق لي مطلبي!

وبعد أن انتفخت عيناي واحمر أنفي من شدة البكاء قررت أن أقوم بفعل مجنون ومتهور لعل الأمر يساعدني على حصولي على الطلاق. فأخذت كل ملابسنا معا، وكان كل رداء يحمل ذكرى خاصة ثم وضعتهم أمام الدرج وأشعلت النار بهم ووقفت أمامهم أصرخ بحضور وليد قلبي وعريسي المزعوم وجاءني ومعه ابني! ابني الذي رآني أقابل الموت قبل أن يبلغ سنته الرابعة، أيعقل أني كنت بهذه القسوة لا رحمة بي! ثم خطوت خطوة قريبة من الموت وصرخت "طلقني وإلا أحرقت نفسي كما أحرق ملابسنا" فلمعت عيناه واكفهر وجهه ورد وهو يضع آدم بعيدا عن الموت "لا يوجد لي خيار غير هذا" فهززت رأسي واقترب مني بل من الموت قائلا "لنمت معا إذا!"

وشعرت حينها أن الموت بدأ يدغدغ روحي، وبدأ الرعب يتسلل لشراييني فأدركت أنني لم ابلغ تلك الدرجة من الجنون المتهور بعد! أنا أريد الحرية لا الموت، فابتعدت عنه وأنا انظر له يقترب منه، فقدت

تركيزي لثانية ولا أذكر يومها إلا أني سقطت أرضا كما تسقط أعظم الدول وفقدت جنيني الثاني الذي قتلته بيديي وأنا لا أدري! واشتد بي الألم ثم تقلصت أوتار رحمي وصرخت صرخة استنجاد فقطع عريسي المزعوم الموت ليصل إلي ويحملني كما يحمل عروسه لأول مرة، كانت الدماء تتدفق مني وحينها كانت كل دناءتي ولا وعيي يغادراني، وشعرت فجأة أنني أغادر نحو السماء العليا حيث تتفاهم الأرواح بالنظرات وتلتقي القلوب حيثما تشاء!

بعد أسبوع كنت قد مللت تلك النظرات الفارغة التي كنت أوجهها للسقف حينا ولباب غرفة المشفى حينا آخر، عدت للمنزل ووجدت هناك ورقة طلاقي تنتظرني، وهي تجلس على عرش روحي وتنتعل كبريائي، يومها كنت قد عدلت عن رأيي وما عدت أريد الطلاق لكن كبريائي كان أقوى من أن أتوسل الحياة أن تنفذ لي طلبي وتعيدهما لي فتخليت عنهما كأنني أرمي حذائي القديم!

ورحلت عن حياتهما كأنني لم أكن يوما، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تخليت عن تلك المدينة وتخليت عن عملي هناك وبدأت من جديد في قرية صغيرة أدرس في ثانويتها البسيطة - التي أقامها سكان تلك القرية من أبسط المواد طمعا في تعليم أبنائهم وإرسالهم لجامعات ومدارس عليا- بديهيات للهندسة وكان تلاميذي فيها لا يتجاوزون السبع أشخاص، لكن أشعرتني بمتعة التدريس التي لم أكن أتذوقها.

كنت أجلس ليلا في بيت إحدى العجائز فتخبرني عن مدى فخرها بأطفالها وتحكي لي قصصهم الطريفة، فابلع لوعتي على ابناي اللذان رميتهما بعيدا لكن سرعان ما اعتدت ذاك الشعور، وكنت صباحا أغادر نحو مقهى صغير كانت تشرف عليه إحدى نساء تلك القرية الوقورات،

النساء اللواتي أن سمعن بدناءتي لذبحنني كيف لا وهن من يقدسن الحياة الزوجية ويكدن يعبدن الأبناء، فكنت أغلق فاهي خوفا من أن ألفظ أسماء أبنائي عبثا وأنا المعروفة بأني امرأة عازبة لا زوج لها!

أحببت تلك الحياة وأحبتني، فاعتدت قضاء يومي بين البساتين وزهور الأقحوان وزنبقة الحقل. ثم أعود ليلا عند الغروب أشاهد الشمس وهي ترحل تاركة خلفها ظل قبلة صفراء مفعمة بالحياة، ولم أكن أشعر براحة أكبر من تلك الراحة التي كانت تتملكني بعد أن أعود من منزل جارتي العجوز وأنا أشرب الشاي الساخن مع بعض قطع البسكويت التي أرسلتها صاحبة ذاك المقهى!

.....

كانت الرياح فوقي تصارع ذلك السواد الذي أرتديه، وكأس الماء المنتصب أمامي بكبرياء يراقب وشاح الكآبة الذي يرتديني، كنت على قدر من الجمال وغادر الجمال مع مهب الرياح الجنوبية ليصبح من نصيب صبية أخرى ستغلفها الدموع والتعاسة لأَنِّي أدري أن جمالي ذلك ما كان يحمل خلف طياته سوى الذل!

أذكرني فتاة في ثلاثينيتها تراقص الزهور وشعرها الحريري ينساب خلفها ذات ملامح غامضة، شديدة الحسن والجمال، كان بعض سكان تلك القرية يسمونني بآلهة الجمال في بداية التقائي بهم وبعدما بدأ الحزن والكآبة ينهشان عظامي لم أعد أُرى وأصبح من الصعب أن أظهر وملامحي الساكنة يجتاحها غلاف التعاسة الأبدية!

كنت متأكدة أن الجميع كان يراني مخلوقا لا يوجد مثله في هذا الكون مخلوق يتجرع السعادة صباحا وينام على غطاء التعاسة ليلا، أحببت تلك القرية حبا شديدا وأدركت أنها كانت ملاذي الوحيد من العالم، كنت أخفي الكثير وما كانوا يسألوني عما أخفي، قبلوا بي رضيعة تتجاوز الخامسة والعشرين وعشت معهم حتى بلغت الخمسين، كانت جارتي العجوز كلما جلست إليها تفاجئني بسؤال لا تنتظر إجابتي عليه قائلة" أشعر أن نصفك معنا فقط أين النصف الآخر يا نجوى؟!" فأهز رأسي وأعطيها كوب العصير الذي تحضره ابنتها من أجلنا كل ليلة ثم تبدأ ثرثرتنا المعتادة متناسين السؤال الدائم.

حتى جاء ذاك اليوم حين استيقظت على ألم شديد كاد يفتك بي، كنت أمام الموت وجها لوجه، ملامحي تتوسّله ووجهي يأبى استصغار نفسه ولساني يرفض التعهد بما لن أجيد القيام به، كان عليَّ تعلم كيف اغسل دناءتي وأرمي كبريائي بعيدا قبل أن يفتك الموت بي، فتقوست ملامحي واستندت دموعي على خداي وصرخت صرخة مدوية وجدت إثرها الكثير ممن اعرفهم أمامي والشفقة تطعن وجوههم ثم خرج الجميع وبقيت بعض النساء تحاولن الاهتمام بي وكنت قد بلغت قبلها الأربعين.

ظننت أنني قد انتقلت للسماء العليا أو أن روحي تحلق الآن بعد أن استنزفت كل طاقتي ومشاعري لكن الأمر لم يحصل وظللت طريحة الفراش ما يتجاوز الشهر حتى شعرت أني لن أقوم منه أبدا، وكانت نساء قريتي يتناوبن على الاعتناء بي خلال هذه الفترة فأزاحوا المرض عني ووضعوا دينا ثقيلا على عاتقي، ثلاثون يوما أو ما يتجاوزها وأنا لا أغادر فراشي وأن غادرته كانت النساء حولي تحملنني، وكنت أنام الليل وابنة جارتي العجوز أمامي فاستيقظ بعد منتصف الليل وقد اشتدت

على الكوابيس فأجدها نائمة، حينها كنت أزفر براحة فلم أكن أريد لأحد أن يداعب ضعفي ولم أنم نوما مثل النوم منذ أن غادرت مدينتي، وبقيت الليل كاملا أتبادل النظرات مع سكان السماء، نظرات فارغة لا يفهم منها شيء وظللت أحدق بهم حتى أصابهم الانزعاج من عيناي فجعلوني أعود لنومي الذي لا يشبه النوم في شيء.

كان يوم غسيل الملابس موحدا يوما واحدا في الأسبوع تجتمع فيه نساء القرية لغسل ملابسهن وملابس عائلاتهن وكنت أنا انظم لهن مرة كل أسبوعين لغسل ملابسي المتراكمة، لكن هذا اليوم أخرجت أغلب الملابس في خزانتي وقررت أن أغسلها عل وعسى أن تغادرهم رائحة الذكريات التي ترهقني، ولم أدرك لحظتها أن إحدى الذكريات المؤلمة كانت قد تسللت بين ملابسي وحين بدأت بغسل تلك الملابس سقطت تلك الذكرى أرضا ولسوء حظي سقطت قريبا من جارتي العجوز فحملتها بين يديها ووجهت نظرها نحوي قائلة "ألم يحن الوقت بعد يا نجوى؟ ألا تعتقدين أن نصفك الآخر قد قتله الانتظار؟ ألن ترأفي بروحه؟!" فانتفض قلبي جراء نبرتها الغريبة، وارتعش جسدي ثم نظرت بعيدا وأغلقت جفناي وكانت هذه عادتي كلما أردت الكذب، لكن يومها لم أكذب بل صمتت فقط، وقررت حينها أنني سأطلب الصفح من ابني الذي بلغ تسعة عشر سنة والذي لا أعتقده سيصفح لي يوما!

وغادرت بعد أن انتصفت الشمس السماء نحو منزل وليد قلبي، ثم طرقت الباب طرقتان، هوى قلبي للأسفل أثرهما ولم أعتقد أنه سيفتح الباب لكن الباب فُتح ومن فتحته امرأة تنافسني جمالا وتكبرني سنا ثم سألتها عنه فنادته، لم أتوقع أن أراه هكذا أبدا، غزا الشيب شعره وحفرت التعاسة أودية التجاعيد في وجهه وأصبح لون بشرته أدكن

نوعا ما وظهرت عيناه خلف انتفاخ خفيف كقرية تظهر لأول مرة خلف الجبال، لم تكن عيناه تحمل الشوق بل كانت فارغة تماما وما إن وقع نظره عليه حتى تغيرت تعابيره وارتجف جسده وحملق بي طويلا قبل أن يقول "عدتِ إذا يا نجوى؟!" أغمضت عيناي إثر نطقه لاسمي وحاولت تجاهل دقات قلبي المسرعة ثم ابتسمت وأنا أحاول أن أخفي المرارة التي تجتاحني وأردفت قائلة "أرى أنك خلقت حياة أخرى لك من بعدي" نظر بعيدا عني وقال بنبرة متعبة هزت عظامي "بل أنتِ كل الحياة!" ولم أشعر حينها سوى أن كلماتي فقدت حروفها وتبعثرت في الأجواء، لم أدرِ بما أجيب وبقيت معلقة بين الصراخ والصمت ثم أكمل قائلا بعد أن اجتاح الفضول عقله "وأنتِ هل خلقتِ حياة أخرى "فابتسمت وأنا أتذكر تلك القرية التي تركتها خلفي اليوم وهززت رأسي إيجابا، فرأيت الجرح يرتقي ليصل عيناه، وبعد صمتي الذي سحق زهور صدره سألت "أين آدم" فأجابني قائلا "حصل على منحة دراسية للدراسة خارج البلاد وغادر قبل سنة ونصف تقريبا واعتقد أنني سألحق به قريبا فهو لم يعد يطيق حياة الغربة"

ثم سألته مرة ثانية" هل يعرف أنني والدته؟!" فأومأ وأردفت قائلة "وهل يحبني؟!" فصمت صمتا طويلا غادرت إثره خارج منزلي الذي تحتله امرأة غيري وفي تلك اللحظة أدركت أني سأموت وذنبي يطوقني لكن رحلتي لم تكن لتنتهي هنا حتى بعد إن سحقني ندمي، كان عليَّ أن أطلب الصفح من والدي الذي قابلني بالرفض التام والذي علمت من خلاله أن أمي ماتت بسبب حزنها على مغادرتي ثم عدت للقرية وبكيت ليلتها كما لم أبكي يوما، كان كل شيء بداخلي يذرف الدموع وهناك انتهت رحلة روحي ولم يبقى سوى شظاياها ورمادها العالق بداخلي.

لم تغادرني الأصوات الصارخة داخل عقلي منذ تلك الليلة حتى كدت أجزم أنني سأنضم لها كنت استيقظ على همس أمي الصارخ باني قتلتها وأنام على صراخ ابنتي الراحلة أني قتلتها فقتلت هذه الصيحات روحي كانتقام مني.

شحب وجهي وأصبحت الدموع العالقة بين أهدابي منظرا يوميا لا يغادرني، وحفرت الدموع تجاعيدي بيديها الصغيرتين، ونحل جسدي وقلت قابليتي لفعل أي شيء حتى إنني جزمت على مغادرة تلك القرية التي أصبحت أراها كأمي التي لم تلدني وبدأت مراحل الحزن الخمسة تتشكل في عقلي كجنين صغير في رحم أمه، أنكرت الأمر طويلا وكنت أبقى في حضن جارتي العجوز أياما تمسح على رأسي وأنا أردد "لم أقتلهما لم يكن الأمر بيدي" وكانت تواصل المسح على رأسي دون أن تسأل كلمة أخرى كانت تعلم أن ما أمر به أصعب من أشرحه له وكأنها كانت تعلم أن تلك الزيارات التي أرسلتني إليها هي ما قتلت روحي لشدة مأساويتها، كانت تدري أن زيارة نصفي الثاني - كما تسميه - هي ما ألقى بي للهاوية.

واستيقظت يوما كنت أشعر فيه بالغضب على نفسي، غضب كنت أعتقد أنه انبثق من اللاشيء لكن في الواقع كان منبعه بحر الندم الذي غرقت فيه ثم أصبت بكآبة تلاعبت بشظايا روحي وجعلتني أعيش أضغاث أحلام وردية، كانت تلك الكآبة تعانقني ليل نهار ضامة إياي لصدرها البارد ولا زالت تلك الكآبة تسكن عظامي لهذه اللحظة!

.....

كل ما يفعله الإنسان سرا في النهار يظهر علنا في ظلمة الليل، فالسواد لا يرحم وأنت لن تسمع نفسك وأنت تصرخ بكل ما أخفيته حين سيسمعك الجميع وفجأة تسقط تلك الهيبة التي عملت على إحضارها طويلا أرضا، وتسمع صوت انكسارها فتنتفض شظايا روحك العالقة بين أضلعك!

حين بلغت الخمسين كانت جارتي العجوز قد توفت قبل خمس سنوات بالضبط، ولحظة مماتها اختفت هالة الكآبة التي أحاطتني وخلقت بدلا عنها درع من الحزن يحصنني ضد أي سعادة، غرقت بوصولي للخمسينيات في بحر مظلم وأنا لا أجيد السباحة، وقطعت حبل نجاتي من شدة تشبثي به رغم أنه لم يكن لينجيني، وأمسيت يومها وحيدة والكثير من الناس أمامي، وحيدة في طابور طويل وعلمت آنذاك أن كل ما يحصل لي وذاك الحزن المختبئ بين عظامي ما هو إلا انتقام صادر من كل تلك الأرواح الغاضبة.

فمنذ متى تصارع الأجساد الرصاص ولا تخرق به؟! ومنذ متى تعاند الروح السقوط ولا تجرح؟! كان غباءً طائلا مني أن أفكر بتلك الأنانية بل كان الغباء، فكري حين ظننت آن أفكاري صحيحة ولو كانت مخطئة أم أن الغباء بحد ذاته كان سقوطي بين أنياب أكثر الأشخاص طيبة وأنا أكثرهم خبثا فتنهشني طيبتهم ولا تؤثر بي ويعديهم خبثي فيغدون مثلي! وحتى بعد أن بلغت الخمسين كنت لا أزال متمسكة بالحياة، لقد كنت أؤمن أن الحياة التي تعذبني ولا تهديني شيئا غير التعاسة حياة لا أعيشها بل حياة ينتقم غيري عبرها مني.

بعد أن بلغت الثانية والخمسين من العمر، وكان جسدي عجوزا وفكري عجوزا وكآبتي عجوزا رغم أن من هم بسني لا يزالون شباب الفكر والجسد فحين استقبلتني جارتي العجوز أول مرة كانت تبلغ الخمسين ولم أرى في حيويتها أحدا، رميت ذكرياتي خلفي للمرة الثالثة على التوالي وتخليت عن تلك القرية التي جعلتني أكبر بين أحضانها وانطلقت نحو مهربي الذي لا مهرب من هذا السن، فأنا العجوز التي لا تملك ابنا ولا سندا في هذه الحياة فسلمت نفسي لدار العجزة أو المسنين سموها ما تحبون لكنني أفضل تسميتها دار البؤس فمن غير البائسين يسكن هذه الديار، ضحايا العقوق وضحايا العجز الشديد وضحايا الدناءة أمثالي، حصلت على غرفة بسيطة كانت شديدة البياض حتى جعلتني أشعر أنني الشيء الوحيد المشبع بالسواد في هذه الغرفة!

كنت أفيق أياما فيخيل لي صوت ابنتي ورد - والتي لم أكن أدري جنسها يوم قتلتها - وهي تصرخ أنني حرمتها من عائلة لطيفة وجعلتها تحلق في سماء المفقودين وهي لم تحضر بعد وكنت أنام بعض الليالي فيأتيني آدم طفل بصوت شاب يناهز العشرين وهو يصرخ ويبكي ثم يقترب مني ويطعنني كما طعنته وأحيانا أخرى كنت أرى والدي ولداي ينظر لي بسخط شديد، فأي أب يحرم من ابنة كان يداعبها حتى كبرت، طفلة لا تغادر كتفاه ولا يزين البيت غير صوت ضحكاتها ويغفر لمن حرمها منه، وقد كنت أنا من حرمته مني ولم أكتفي عند هذا الحد وحرمته من أمي فكيف له يغفر لي خطيئة بهذا القدر أن كنت أنا لا اغفر لنفسي!

مرت السنوات ودرع الكآبة الذي حضرني ضحية لدناءة روحي يجالسني منشدا لي أغاني الحزن والتعاسة الأبدية مرحبا بانضمامي لعالمه كأنني انضممت له اليوم، وتحضرني أصواتهم صارخة حتى

شككت أنني أضحيت مريضة عالقة في غبار الماضي وما تلبث أن تغادرني تلك الأصوات حتى يحضرني أصحابها في كوابيس ليلية ويومية.

وبدأت الأمراض تفتك بجسدي، الذي أصبحت الرياح تحركه يمنة ويسرة لشدة فراغه، فتجعلني الأمراض أتلوى ألما وأصرخ تعبا واستنجد روحي أن تعود فلا ألقى منها إلا الرفض ويزداد ألمي فأصرخ حتى تسقط دموعي، كانت صرخاتي تحدث ضجة وصخبا كبيرين بهذه الدار التي اعتادت الهدوء.

مر عقدان كنت خلالهما اجلس أمام مرآتي ليل نهار وأنا الحظ تشكل وديان التجاعيد في وجهي واختفاء ملامحي، وكانت الشمس تطل صباحا فأشعر بها تنتشل شظايا روحي من جسدي، وظل الندم خلالهما يتجسد لي شيطانا مصفدا يعبر من خلال درع الكآبة الذي نشأ بي نحو قلبي فيقطعه ثم يهرب منه فيتقوس جسدي ألما، وظل ذلك التقوس الذي أشعر به يزداد يوما بعد يوم يرافقني كأن الزمن جمد إحدى لحظات خروج الندم مني قبل أن يعبرني مجددا.

واستيقظت اليوم بعد أن بلغت السبعين -قبل بضع أيام- من كابوس وجدت إثره أمي تقف أمام باب غرفتي ونظراتها فارغة ولا تحمل أي نوع من المشاعر-وهي التي لم تزرني أبدا- أغلقت عيناي ثم فتحتها فوجدتها لا تزال واقفة أمامي وملامحها الثلاثينية بنظراتها الفارغة تراقبني ثم أغلقتها للمرة الثانية فوجدتني عدت طفلة كما كنت يوم خرجت من منزلهما فما وجدت إلا أن أقوم من مضجعي وقبر روحي نحو المرآة التي تتوسط حائط غرفتي وأنا أحاول كتم صرختي التي لا ترغب بالصمت فوقفت أمامها وأنا أنظر لوجهي وقد اختفت منه

التجاعيد ثم ألقيت نظرة نحو ملابسي فوجدت ذاك الفستان الأرجواني يحيطني الفستان الذي ارتديته حين بلغت السابعة عشر ثم اختفت تلك الغرفة التي كنت بها وظهرت غرفة المعيشة الخاصة بمنزل والداي، ودون أن أدري وجدتني أطعن والدتي طعنات متتالية بسكين لا أدري من أين أحضرته كأن شيطانا سكن جسدي فاكفهرت ملامحها ثم اختفت من أمامي ولا تزال الدماء تحيط يداي.

اختفت الدماء وتلاشى فستاني وعادت غرفتي لطبيعتها، لكن ذلك المنظر ظل قابعا بين عيناي يلوح لي تارة ويبتسم لي تارة، كأنه يتعمد أن يبقى عالقا بين ذكرياتي، ظللت طويلا انتظر مرضا ينتشلني من هذا الوضع ولم يحضرني سوى الألم ثم طلبت زهايمرا ينسيني كل ذكرياتي وجاءني عكس ما تمنيت، مرض فتك بشظايا روحي وأحضر معه كل ذكرياتي حتى تلك التي رميتها بعيدا، وحتى حين طلبت الموت كوفئت بهذا الخلود الذي يرعبني.

الساعة لا تتجاوز الرابعة بعد منتصف الليل، وأنا أشعر بعجز شديد يتخلل عظامي، خرجت من غرفتي التي بدأت أشعر أنها تحبسني بين جدرانها وانطلقت نحو خزانة كنت أرى بها كل الأدوية كأنني ذاهبة لمنطقة إعدامي وحملت دواءً لم انتبه ما كانت فائدته لأنني لا أرتدي ما اعتدت منه إنارة طريقي وتبيين حروفي بل تبعت خطواتي ظلال الأشياء التي بدت لي مبعثرة جدا كما هي أفكاري الآن وعدت لغرفتي واضعة ما بيدي على الطاولة التي أمامي ثم استلقيت فوق قبر روحي وانتظرت حضور خصمي الوحيد إلا وهو النوم.

ما اللعنة التي أصابتني فأعجزت روحي وجسدي لكنها سمحت لآخر أنفاسي أن تبقى معلقة بهذه الحياة؟! يجدر بها أن تكون لعنة قوية

استطاعت طمس كل شيء بداخلي، أيعقل أنها الدناءة التي أصابتني منذ كنت رضيعة أم أنه الجمال الذي أصابني بالغرور.

الغرور أنا واثقة أن الغرور الشديد هو ما سبب لي هذا المرض العقيم، من يصدق أنني لم انتبه أنني كنت اجعل روح كل من حولي تحتضر وأنا واقفة على قمة كبريائي أوزع نظرات لا اذكر ما كان محتواها؟!

آمنت اليوم أن كل ما فعلته هو ما يجعلني أتعذب الآن وهو ما قتل روحي وهي فتية، فوضى الأزمان الموسومة بعار الدناءة التي عشت تحت كنفها الكثير من حياتي هي ما أوصلني لحالة الذل الذي أعيشه الآن.

كنت شبيهة بفراشة تحررت من شرنقتها أخيرا وأخذت ترفرف هنا وهناك غير مدركة أن هذه الرفرفات تشكل أعاصيرا هوجاء في بلدان النصف الآخر من العالم، وأنا ظللت أرفرف سنينا طوال دون أن أدرك أن كل ما أقوم به سيعود علي سلبا، لم أكن ادري أن كل ما قمت به سيشكل فوضى صاخبة عبر سنيني ولم أعلم أن طيشي الزائد سيذيقني الذل، لم يذقني إياه فقط بل جعلني استطعمه وأتذوقه مرارا كأنه يعلمني طريقة تذوق الأشياء ولم تكتفي الحياة بهذا الانتقام لتزيدني كأسا من التعاسة يوميا كأنه دواء أنا مجبرة على تجرعه وحقنة من الأفكار السلبية والانتحارية مباشرة نحو منبع أفكاري!

.....

استيقظت صباح اليوم التالي وأنا أشعر أن الموت حاضر إياي وكانت شظايا روحي عالقة في حلقي كأنها تأبى الخروج، ثم فتحت عيناي لأجد

أن ذلك لم يكن سوى كابوس كالبقية لكن ألم السبعين عاما بقي عالقا في عظامي، لم يحضرني الموت لكنني أحسست به يختبرني ويفرض سلطته على دقات قلبي ثم انتشلني من الموت صوت الممرضة التي أخبرتني أن هناك زيارة لي، الأمر الذي أعادني للحياة وخلق لي روحا بداخلي جعلتني اهمس "من يا ترى تذكرني الآن؟!" أنا متأكدة أنه أحد أفراد القرية فهم الوحيدون الذين كانوا يزورونني بين الحين والآخر لكنني لا أذكر سوى انقطاعهم عني قبل سبع سنوات تقريبا.

جلست فوق مضجعي وتلك الشظايا بداخلي راحت تتكاثر لتخلق في روحا جديدة لربما كان سببها الفرحة الشديدة، ثم وقفت أمام المرآة أحاول تعديل مظهري وتعديل فستاني الذي أشعر به يتوسل جسدي ليتشبث به بعد أن كان – جسدي - يملأ كل الفساتين في مظهر مغر!

دخل إلي كهل لربما يتراوح عمره ما بين الأربعين والخمسين، بدأ الشيب يغزو شعيرات قليلة من شعر رأسه المائل للشقار ثم اقترب من سريري قائلا بنبرة متسائلة "نجوى مالك؟!" فهززت برأسي إيجابا لألحظ امتعاض ملامحه، قال بصوت تبينت فيه الندم "أنا آدم" ارتعش جسدي وافترقت شفتاي وأنا أقول" ابني، هل رق قلبك أخيرا؟!" فاكفهرت ملامحه وأدكت أنني بدأت الحديث بالطريقة الخطأ ثم زمجر في وجهي قائلا "قلبي لن يرق نحوك أبدا؟! هل رق قلبكِ نحوي يوم تخليت عني؟! أكيد لم يفعل فامرأة تتجرع الأنانية كما تتجرع الماء لا قلب لديها"

فانقبض قلبي بعد أن أنهى ما قاله، أيعقل أنه يكرهني لهذه الدرجة، استجمعت شتات روحي التي لم تنمُ إلا قبل قليل وقلت بصوت أشبه إلى الهمس "آدم، بني أنسيت أنني من حملتك تسع أشهر وتحملت

ألم ولادتك دون أي تذمر!" فعلت معالم الاشمئزاز وجهه وقال بنبرة ساخطة "أتريدين مني تذكر رحمك المظلم ونسيان ثمان وأربعين سنة من اليتم، ثمان وأربعين سنة تخليتي فيها عني مقابل تسع أشهر حملتني بها، تسع أشهر بخلتي بها على أخي الذي اجهضتيه بغبائك؟! هل ترين الحماقة تحيط عيناي؟! "وهنا لم تقدر أقدامي على حملي فسقطت جاثية أمام أقدامه وأنا أصرخ وأبكي وصوتي المتقطع ممتزج بنبرة الحزن ولوعة الصياح" هل تراني سعيدة بما يحصل! ها أنا اجثوا أمامك الآن فلتغفر لي يا آدم اغفر لي ما لم استطع غفرانه لنفسي، اغفر لي إحضارك لهذه الحياة المظلمة بل اغفر لي دناءتي، اغفر للدنيا كونها شكلتك جنينا في رحم أم شديدة الدناءة" وواصلت شهيقي العالي ثم ابتعدت عنه وجلست مرتكزة على جدار الغرفة وصوت شهقاتي يعلو مع الوقت ألم يكن بإمكانه تركي أموت مع تعذيب ضميري ذاك؟ هل أتى ليضرم النار به وبي؟ ألن يرأف نحوي ويتركني أموت بسلام!؟

الموت، توحدت كل الأصوات بعقلي وبدأت توسوس وتصرخ بالموت ولا شيء غيره حتى وجدتني أحيط أذناي بيدي أما هو فنظراته الفارغة تأبى مفارقتي، نظراته التي التمست فيها شيئا غريبا - إضافة للفراغ - لم أعرف ما هو، والصيحات التي سكنت عقلي ما زالت ترفض الصمت.

ولم أجدني إلا أحمل نفسي متوجهة نحو علبة الدواء التي أحضرتها بسبب الأفكار الانتحارية التي راودتني وما إن أفرغت محتواها بيدي حتى هرعت فتاة لداخل ثم أسرعت بنزع حبيبات الدواء من يدي والتفتت نحو وجه ابني ثم زمجرت "أبي اطلب منك أن تأتي لتعيدها إلينا فتجعلها تقتل نفسها!! أي أب وابن أنت؟!" وعادت إلي تحضنني

وهي تتمتم بقوة أنها ستبقى معي ولعلي خضعت لحضنها البريء هذا فتسابقت الدموع بين عيناي وسقطت حروفا أجهضتها منذ زمن! وفجأة بدا لي صوتها الهامس مألوفا هي الفتاة التي استمرت بالعناية بي - وببعض العجائز الآخرين - خلال السنوات الثلاث الماضية، وبالرغم من أنها حفيدتي لم تنبس ببنت شفة عن الأمر طوال مدة بقائها معي!

ابتعدت من حضنها ذاك بعد مدة صغيرة وحملقت في وجهها بشدة رغم دموعي التي كانت تشوشه، هل كنت بائسة لدرجة أنني لم أرى مدى شبهها بي! شعرها الأحمر المرفوع للأعلى مع بعض الخصلات المتمردة منه، وعيونها الغابية الواسعة، بشرتها التي تميل للسمار وشفاهها الممتلئة هي حقا الصبية التي جرفت الرياح جمالي إليها، لكن كيف لهذه الطيبة أن تتجرع الحزن كما تجرعته، جمالي لا يبعث بشيء غير التعاسة ولا أريد للتعاسة أن تمسها! يا رب أتوسلك ألا تجعلها تتجرع الحزن كما تجرعته وكما تجرعته والدتي قبلي بسببي!

وقفت أخيرا من تلك الأرض الباردة وتوجهت نحو آدم لأحضنه حضنا طويلا ابتعدت عنه بعد أن شعرت انه لن يبادلني قريبا "شكرًا لرحمتك نحوي" قلت واللوعة تعبر كبدي ثم أشرت نحو الفتاة الجالسة على الأرض ثم سألتها أخيرا" لم اعرف اسمك يوما؟!"

لتقف ويتدلى فستانها الأبيض خلفها فظهرت لي ملاكا لفظته السماء بعيدا ثم أخذت تقترب مني قائلة بحيويتها المعتادة "اسمي ورد، وقد أخبرني جدي إن اسمي على ذوقك أنت" فخفق قلبي بحب لأول مرة منذ عقدين أو أكثر وجذبتها لحضني مرة أخرى كأنني أرى النعيم بها! وما إن أخرجتها من حضني حتى قال آدم بنبرة جافة "سأذهب لأوقع على وثائق خروجك من هنا" ثم اتبعت ورد كلامه قائلة وهي تتأبط ذراعه "

تعال لآخذك للمكان إذا" فأومأت بابتسامة ودموعي تأبى التوقف منذ دخوله أومأت وأنا اعلم أنني لن أغادر غرفتي هذه اليوم!

اضطجعت على سريري ولم أشعر إلا بالسواد يحيطني أخيرا، السواد الذي انتظرته طويلا، الشيء الوحيد الذي ظل معلقا فوق جبيني طوال حياتي هو ذنبي، ذنبي الذي علمني إن بعض الأفعال الصغيرة لها عواقب ضخمة لا قدرة لي على تحملها ولا أستطيع إجهاضها! ولربما لن افعل يوما.

أنا عالقة في هذا السواد بعد أن سقطت من حافة عمري التي بقيت واقفة عليها طويلا لكن السؤال الذي يدغدغ أطرافي: أهذا هو الموت الذي أردت؟!